مجتمع

شنغهاي الصينية تستعد للإعصار بيبينكا

أوقفت سلطات مدينة شنغهاي الصينية خطوط النقل واستدعت السفن وأغلقت المواقع السياحية، الأحد، استعداداً للإعصار بيبينكا الذي قد يكون أقوى إعصار مداري يضرب المدينة منذ عام 1949. ووصلت سرعة الرياح المصاحبة للإعصار المصنف من الفئة الأولى إلى نحو 144 كيلومتراً في الساعة، ومن المتوقع أن يصل إلى اليابسة بمحاذاة الساحل الشرقي للصين بعد منتصف ليل الاثنين. وعادة ما تكون شنغهاي بعيدة عن خطر الأعاصير القوية التي تضرب جنوبي الصين، لكنها تتوخى الحذر مع إعصار من الفئة الأولى مثل بيبينكا. (رويترز)

غرق 8 مهاجرين حاولوا عبور بحر المانش

لقي ثمانية مهاجرين حتفهم ليل السبت - الأحد أثناء محاولتهم عبور بحر المانش من شمال فرنسا باتجاه إنكلترا. ووقع الحادث بعد أقل من أسبوعين على غرق قارب أسفر عن مقتل 12 شخصاً في 3 سبتمبر/أيلول، ما رفع عدد المهاجرين القتلى أثناء العبور غير النظامي للمانش إلى 37 شخصاً خلال عام 2024. وتسعى الحكومتان البريطانية والفرنسية منذ سنوات إلى وقف تدفّق المهاجرين غير النظاميين الذين يدفعون للمهرّبين الآلاف مقابل العبور. ووصل أكثر من 22 ألف مهاجر إلى إنكلترا عبر المانش منذ بداية العام. (فرانس برس)

يحرص الاحفاد على إحياء ذكرى المذبحة (أنور عمرو/ فرانس برس)

مجزرة صبرا وشاتيلا... ذاكرة الأجيال

اثنان وأربعون عاماً مرت على «مجزرة صبرا وشاتيلا»، لكن الجرح ما زال ينزف، وما زالت العائلات تتذكر شهداءها، بينما لم يحاسب أحد على كل الدماء التي سالت

بيروت ـ **انتصار الدنان**

في 16 سبتمبر/أيلول 1982، اجتاح جيش الاحتلال الإسرائيلي العاصمة بيروت، بعد أن اجتاح مناطق جنوبي لبنان مروراً بمدينة صيدا، وبعد حصار دام نحو ثلاثة أشهر للمخيمات الفلسطينية وللمقاومة، خرج آلاف المقاتلين الفلسطينيين إلى تونس تحت الحماية الدولية. لم يعد لدى المخيمات الفلسطينية من يحميها، وباتفاق مع جيش الاحتلال، نفذت قوات يمينية مذبحة دامية في مخيمي صبرا وشاتيلا استمرت لمدة ثلاثة أيام، وراح ضحيتها نحو 3500 مدني، من بينهم أطفال وشيوخ ونساء، فلسطينيون ولبنانيون.

العديد من العوائل لم يتبقَ منها أحد، وعوائل أخرى لم يبق منها إلا فرد أو فردان استطاعوا الاختباء على سطح البيت، أو في الخزانة، أو خلف الغسالة، وشاهد مئات الصغار ما حصل لأهلهم أمام ناظريهم.

بات سكان مخيم شاتيلا في الوقت الحالي خليطاً من الجنسيات، فلسطينيون وسوريون ولبنانيون، بينما تغيرت معالم مخيم صبرا تماماً، وتبدل سكانه، وصار الفلسطينيون قلة قليلة فيه، فالغالبية باعوا بيوتهم ورحلوا، واختار الأكثرية الهجرة ملاذاً آمناً لهم.

بعد كل هذه السنوات، لم ينس أهالي شاتيلا تحديداً المجزرة التي ما زالت أحداثها حية حتى اليوم، ويتوارث الأبناء روايتها حتى تبقى في ذاكرتهم، فالعدو في نظرهم يريد أن يقضي على كل الفلسطينيين بإجرامه، خصوصاً على الأطفال، كي لا يبقى أحد للمطالبة بالوطن في المستقبل، أو يتحول إلى مقاوم يقاتل لاستعادة أرضه.

أعيد إعمار البيوت المتهدمة في مخيم شاتيلا بعد أن مات أهلها، أو رحلوا عنها، في حين عاد كثيرون إلى المخيم لاحقاً ليعيدوا بناءه، والأسر التي لم يتبق أحد من أفرادها ذهب ذكرها، وسكنت في منازلها أسر أخرى. لا تخلو الحوائط اليوم من شعارات ولافتات تمجد المقاومة، وتدعو إلى عدم ترك «البارودة». يعج المخيم بالسكان، والحركة الدائبة فيه تشير إلى أن سكانه يحبون الحياة، وأنهم ينتظرون العودة إلى فلسطين.

جميع الصغار والشبان لم يشهدوا المجزرة، لكنهم عرفوا تفاصيلها من خلال حكايات أجدادهم الذين عاشوها، وهم يشاهدون حالياً المجازر والإبادة الجماعية التي يقوم به العدو الإسرائيلي في قطاع غزة، ولسان حالهم يقول إن الهدف من كل المجازر، الحالية والسابقة، هو إبادة الشعب الفلسطيني، وتجريده من حقه في استرداد أرضه.

ولد أحمد الغضبان (14 سنة) في مخيم شاتيلا، ويقول لـ«العربي الجديد»: «حكى لي جدي عن المجزرة التي راح ضحيتها العديد من الأهالي، وأخبرني أن الجيش الإسرائيلي دخل لبنان، واحتل بيروت، ثم دخل الجنود إلى مخيمي صبرا وشاتيلا، وهجموا مع مليشيات مسلحة على السكان، ودخلوا جميع البيوت، وقتلوا الناس رمياً بالرصاص. عدد كبير من الأطفال والنساء والشيوخ قتلوا، وكل من عاشوا المجزرة يؤكدون ذلك، علماً أن غالبية الكبار الذين ظلوا على قيد الحياة بعد المجزرة ماتوا، ولم يبق على قيد الحياة حالياً سوى من كانوا أطفالاً وقتها. المجزرة في صبرا وشاتيلا هي المجزرة نفسها في غزة، والمؤامرة ذاتها. إنها مؤامرة سياسية الهدف منها أن لا يتركوا فلسطينياً واحداً على قيد الحياة، حتى لا يبقى من يدافع عن أرض فلسطين». استشهد عدد كبير من سكان المخيم في المجزرة، من بينهم عائلات كاملة، وعدد من الأهالي لم يتبق لهم إلا ولد أو اثنان على قيد الحياة، وقد عادوا إلى المخيم بعدما كبروا ليعيدوا بناء بيوت أهلهم، إضافة إلى أشخاص وفدوا إلى المخيم، وكانوا غرباء عن البيئة والناس، لكنهم تأقلموا مع تفاصيل الحياة، وعلى الرغم من أن المقتحمين أرادوا أن يقضوا على المخيم، إلا أنه عاد لينبض بالحياة من جديد. يعيش محمد بهار في مخيم شاتيلا، وهو متحدر من بلدة صفورية، ويقول لـ«العربي الجديد»: «بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، دخل عناصر من المليشيات اليمينية اللبنانية تحت حماية الإسرائيليين إلى مخيمي صبرا وشاتيلا، وصاروا يقتلون الناس في المخيمين. كان هدفهم قتل أكبر عدد من الناس الذين يسكنون في المخيمات حتى لا يكون هناك شيء اسمه مقاومة، وإنهاء فكرة وجود مقاوم يدافع عن الأرض. استشهد العديد من المقاومين بعد أن واجهوا العدو بأسلحتهم الخفيفة، حسب ما أخبرتني جدتي، والتي استطاعت الهرب كونها كانت تسكن على أطراف المخيم».

يتابع بهار: «لم يستطع العدو تحقيق هدف القضاء على الناس الذين يعيشون في المخيمات، فنحن شعب مقاوم، وأهلنا عادوا إلى المخيم بعد المجزرة، وأعادوا بث الحياة فيه من جديد، وبنوا بيوتهم التي أحرقها المهاجمون، وتزوجوا وأنجبوا أولاداً، وبعض هؤلاء الأولاد أصبحوا مقاومين يتحدون العدو الإسرائيلي، ومصممون على مواصلة الصمود حتى تحرير فلسطين.

اليوم، يعيش في المخيم خليط من الناس، من بينهم أهالي المخيم الأصليون، ومنهم من هاجر، ومنهم من مات، إضافة إلى لبنانيون لم يعد باستطاعتهم العيش خارج المخيم بسبب تكاليف الحياة، فالحياة في المخيم أقل كلفة من العيش خارجه، وسوريون نزحوا بسبب الحرب في بلادهم قبل سنوات. تغيرت معالم المخيم، وازداد عدد السكان، والبيوت أخذت أشكالاً مختلفة عما كانت عليه في السابق، إذ صارت تبنى على شكل طبقات كي توفر السكن لأولاد صاحب البيت، أو ليتم تأجيرها، وبالتالي ينتج منها عائد مادي».

بدوره، يقول الطفل زكريا دبدوب (8 سنوات)، المولود والمقيم في مخيم شاتيلا: «كان جدي موجوداً في المخيم حينما دخلت قوات مسلحة رفقة الإسرائيليين إليه، وعايش المجزرة التي حصلت، وعمليات القتل التي جرت، لكنه استطاع أن ينجو مع جدتي بحياتهما بعد أن وجدا مكاناً آمناً للاختباء».

ويقول مؤيد عقيل، المتحدر من بلدة طبريا بفلسطين، والمقيم في مخيم شاتيلا: «بحسب حكايات الكبار، عندما تم حصار المخيم لم يكن باستطاعة أحد الخروج منه أو الدخول إليه، واستطاع العدو قتل عدد كبير من الناس. المجزرة كانت بشعة، وهي شبيهة بالمجازر التي تحصل حالياً في غزة، فالقاتل واحد، والسبب أنهم لا يريدون أن يبقى أي فلسطيني على قيد الحياة، لأنهم يعلمون أن الفلسطيني عندما يكبر سيصير مقاوماً، ولن يتوقف عن الدفاع عن أرضه. غيرت تلك المجزرة كل شيء في المخيم، وبدلت عوائل بأخرى، والبيوت صارت على شكل بنايات طابقية، وغالبية البيوت القديمة لم يعد لها أثر، وسكنت عوائل جديدة المخيم لم تكن موجودة أثناء المجزرة».

يضيف عقيل لـ«العربي الجديد»: «لم يستشهد من عائلتي أحد، لأنهم لم يكونوا في المخيم عندما حصلت المجزرة، وجميع من تم قتلهم لم يكن باستطاعتهم الهروب، والذين يعيشون اليوم في المخيم بعضهم غرباء عنه، والبعض الآخر ولد بعد المجزرة لعوائل فقدت العديد من أفراد أسرها، وبعض العوائل اختفت تماماً ولم يبق لها أثر، تماماً كما يحصل الآن في غزة في تلك الإبادة الجماعية التي يقوم بها العدو باستخدام أقوى الأسلحة. الرسالة واضحة، فهم لا يريدون أي فلسطيني على قيد الحياة، ويريدون قتلنا وإزالتنا من الوجود».

تبدل الحال كثيراً في مخيم شاتيلا (العربي الجديد)

عن الإبادة والنقصان

شهادات ناجيات وناجين من حرب غزة

هَذِه شهاداتٌ لناجين وناجيات من الحرْب في قطاع غزَّة التَقيْتهم في البرْزخ. حكاياتٌ مسْمُولةٌ بالأشْواك تُحاول التَّحْديقَ في الفاجعة، سلْسلةُ قصص توْثيقيَّة تبحثُ في ثيمة النقْصان. هُنا بشرٌ فقدُوا كُلَّ شيْء: عائلاتهم، بُيوتهم، أطرافهم، أحْشاءهم، قطعاً من اللَّحْم اعْتادتْ أن تكسُو عظامهم، حَواسّ زوّدتْهم بها البيولوجْيا لالْتقاط معْلوماتٍ عن العالم الخارجيّ، ورقةَ تينٍ تُواري سوْأة خطيئة لم يقْترفوها، ولغة مُتماسكة لم يُصبْها ما أصاب أصْحابها من تشظ وشتات واسْتحالة إلى أشلاء مُتناثرة. قصص النُّقْصان هذه؛ نُقْصان الأجْساد من أعْضائها، الخريطة من تضاريسها، التّرْبة من بقْلها وقثائها وزيْتونها، البحْر من أسْماكه، القصائد من وزْنها وقافيتها، المنْظومة التَّعْليميَّة من أساتذتها وتلامذتها، المشافي من حَبَّة دواء، قصص تُحاول الاكْتمال عَبْر روي النُّقْصان، صوْت الضحية - التي لم تعُد تملك غيْر ذاكرتها فعْلاً للمقاومة - لجعل اللغة البشريَّة الحسِّيَّة قادرة على تجسيد الألم أو النَّظر إليه، إنَّها مُحاولة لرؤْية الإبادة من وُجهة نظر خاصَّة بلحْظة مُعيّنة تبحث فيما حدث لفلسْطينيِّي غزَّة بعْد السَّابع من أكْتوبر. تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذه الشهادات التي تكتُبُها الروائيّةُ سمر يزبك وتنشُرها «العربي الجديد» على حلقات ستصدُرُ لاحقاً في كتابٍ يحملُ اسمَ «ذاكرة النقْصان».

كيف نكتب الإبادة؟

عن هدم العالم وأشباحه

سمر يزبك

لِنفْترضْ أو لِنذْهبْ أبعد من الافْتراض، أنَّ لِلْفاجعة إحْداثيَّات؛ رسْمًا بيانيًّا لِعالم الخراب يمتدّ كحبْل مشْدُود على أوْتاد خشبيَّة، أوّلُها قُرْب بحْر غزَّة وثانيها في ما تبقّى من أطْلال في داريّا، هل بإمْكاننا تتبُّع خطّ النزيف من فوْق هذا الحبْل دُون أنْ نخْشى السُّقوط في الهاوية!

هكذا فكّرْتُ وأنا أتخيَّل المجازات التي خيَّمت خلْف ظلال الفاجعة/ الإبادة. فما بيْن الشّكّ واليقين في مرْوية فعْل الحقيقة يجْدُر بنا التّواضع قليلاً والانْتباهُ إلى الظّلال؛ ظلال اللغة وأشْباحها، على لِسان الضّحايا هذه المرّة. ألا يجب الآن على اللغة الانْحناء أمام هذا الحبْل المتوتِّر، المشْدود على أعْناق أرْواحنا والمتجاوز قُدْرة عقْلنا البشريّ على تصوُّر تلْك اللّعنات التي حلّت عليْنا! ماذا سنفْعل بكلّ هذه الحكايات الرّهيبة! وحْده الصّمْتُ من يستطيع أن يمْنحنا النَّجاة في هذه الشُّروط الإنْسانيَّة البائسة؟ إحالة اللغة إلى مُجرَّد فراغات بيْن هذه الوقائع الدّمويَّة يُعْطي دوْرتنا الدَّمويَّة فُرْصةً جيدةً لتغْذية القلْب المخْنوق من فواجعه المتكرِّرة مُنْذ لحظة الأمل عام 2011، أليْستْ هذه شُروط النّضْج الانْفعاليّ؟ ألا نذْهبُ جماعياً نحْو الصّمْت لأنَّ الكلام هذه المرَّة هو الفضيحة التي تكْشف عجْزنا! نعم، تُصْبح اللغة البشريَّة عاجزةً عن مُقاربة الأفْعال البشريَّة في كثير من الحالات! نعم، يستطيع البشر التّوحُّش بما يتحدّى قُدْرة اللغة على التّعْبير، ويصبح الخرس هو السبيل للنّجاة. لكن!

من قال إنّنا نُريد النَّجاة أصْلًا!؟

سنواتٌ وسنوات ونحْن نُحدّق في الفاجعة حتّى اسْتحال الرَّأْس إلى سائل زئْبقيّ رائحته الكراهية، حتّى الغضب ليْس له من معْنى هُنا، من يكْتُب الفاجعة لن ينْجُو، هذا صحيحٌ. لكن ماذا تبقّى لنا وأمامنا سوى أن نكْتُب آلامنا؟

تستحْضِرُ الكتابة عن الفاجعة تأمّل فراغ ما بعْدها، أثارتْ اسْتخْدام هذا العنْوان المقْتبس من الفرنْسيّ مُوريس بلانْشو، لأنَّ أحد تعْريفات مُفْردة الفاجعة في اللغة العربيَّة مُرْتبطٌ بمصائب الفقْد التي لا تُحيل إلى شيْءٍ أكْثر من إحالاتها لِثيمة النُّقْصان التي أحاول البحْث فيها لِكتابة سرْدية الإبادة، ولأنّ بلانْشو نفْسه الذي يُفرد كتابًا كاملًا لمُفْردة الفاجعة يقُول: «فكْرة الفن الملْتزم غير مُجْدية، وفاعليَّة الفن في التّاريخ غيْر دالَّة لأنَّ كتابة المقال والسِّيرة والمذكّرات أجدى نفْعًا للتّاريخ من كتابة القصيدة». ولأنَّ واحدةً من أساسيات عمل بلانشو رغم نظريته في الكتابة الشذْريَّة وفكْرة الامْحاء وعدم قول أيّ شيْءٍ لقول كلّ شيْء، فهو نفْسُه من كان يدعُو إلى التوجّه نحو الغيْر.

مُنذ سنوات أحاول وأفكّر بشكل جديد من إعادة كتابة وتعْمير الحيوات الزّائلة لِلْبشر والْحجر في هذا الزمن العصيب، زمن هدم العالم، كيْف يُمكن إعادة تعْمير تلْك الأمْكنة التي أتيْنا منها عبْر سرْدٍ مُخْتلف، لا هُو بالأدب ولا هُو بالتّوْثيق فقط!

يُمْكن لنا عبْر التّحْديق في الفاجعة الآن وأكْثر من أيّ وقْت مضى، حيْث تكْتُبُ الفاجعة الآن عالمنا بطريقةٍ مُخْتلفة، تكْتُبها صُوريًا ورقْميًا لتمْحوها من الوجْدان الجمْعي للْبشر ولتحوّلها إلى مُنْتج إسْتهْلاكيّ عابر ولحظيّ وانْفعاليّ، لقد وجدْنا أنْفسنا ضائعين أمام أهوال التّبدُّلات التي فرضتْها حُرُوب الإبادة على المعاني واللُّغة بعْد تدْمير البشر، نحْن أبْناء الحرْب والفجيعة، ليْست الفواجع التي تحدَّث عنْها بلانْشو، رغم أنها تلتقي معها في الهدم والبناء، يقُول بلانْشو: إنَّ الفاجعة ورؤْيتها في أيّ فعْل إنْسانيّ يكْمُن في تدْمير معْناه واسْتنْباط عالم آخر منْه، ففعْل الكتابة فاجعة، فعْلُ القراءة فاجعةٌ أيْضًا بمعْنى ما، لكن لِنحدِّد أكْثر: ما يعْنيه هُو قيامةُ عالم جديد! أسْتخْدمُ الفاجعة هنا لأتحدَّث عن الأهْوال وعن قُدْرة الشّر البشريّ على تدْمير العالم. وبالمُقابل قُدْرتنا على رُؤْية لحظة التّدْمير هذه والإحاطة بها ورؤْيتها والْعمل فيها من داخلها (داخل الفاجعة / الإبادة) لِدحْضها وروايتها بمعْنى ما!

أعُود إلى التّشْكيل الهنْدسيّ لِلْحبْل المشْدود بيْن غزّة وداريّا، خطٌّ أُفُقيٌّ يرْبُط بيْن مدنيَّتيْن ناقصتيْن من البشر والْحجْر، سوْف أبحث في فعْل نُقْصان البشر ونقْصان الحجْر وهكذا.. فإنَّ مرْوية الإبادة تعْتمد بشكل أساسيّ على فعْل النُّقْصان، وهذا النُّقْصان شكْلٌ من أشْكال ثباتها وقوّتها واكْتمالها، بمعْنى إبْرازها، بمعْنى القُدْرة على التّواصل معها، النُّقْصان الذي يلُوح في كُلّ زاويةٍ منها، نُقْصان الأجْساد المقطَّعة، نُقْصان قُدْرتنا على الرُّؤْية، نُقْصان المشْهديَّة العميقة لآلام الآخرين، نُقْصان اللغة، فالنُّقْصان هُنا مُتكامل، لا يُمْكن الكتابة مثلاً عن أجْساد بشريَّة مُقطّعة الأطْراف، دُون التّفْكير بالْفراغ الذي تركتْه هذه الأطْراف في وعْي أصْحابها، أو بالنُّقْصان الذي ستُصاب به عُقولنا مع نُقْصان فادح لِلأجْساد البشريّة التي ما تزال تتنفّس! كما لا يُمْكن التّفْكير به إلّا كمادّةٍ أوليّةٍ لِملْء الفراغ وإعادة بناء وتركيب ما تناثر من هذه الأجْساد، وهذا أيْضًا منُوطٌ بنقْصٍ في اللغة نفْسها، عنْدما تعْجز عن التّعْبير وعن توْصيف ما لا يُمْكن توْصيفه، وهُو ما يقُود بالنُّقْصان هُنا إلى شكْل من أشْكال الوحْدة الدّفينة! كُلّ شيْءٍ ونقيضه يُلوّحُ واضحًا في كتابة الفاجعة التي تأْكُل الجنْس البشريَّ والتي لِمصادفةٍ ما في آلة التّاريخ الشّرّيرة، كُنّا شُهودًا عليْها.

ولأنَّه قُدِّر لي التّطلُّع إلى مُستوى الإحْداثيّات المرْسومة فوْق خطّ الجحيم هذا الممْدود بيْن غزّة وداريا، فقد فكّرْتُ بسرْد لحظاتٍ مفْصليّةٍ من ذواكر من نجا من هدْم العالم؛ في غزّة مثلاً، سلْسلة شهاداتٍ عن لحظة السّابع من أكْتوبر؛ سُؤال البشر عن ذلك الزّمن السّائل نحْو الخراب بدايةً من تلْك اللّحْظة، النّاجين والنّاجيات من فعْل قصْديٍّ وممنْهج في الإبادة، سُؤالٌ مُكرَّرٌ وفي تكْراره ثباته ولكنَّه من جهةٍ أُخرى وفي الوقْت ذاته هُناك نفْيُه، بمعْنى إعادة خلْقه والتّأمُّل فيه لِدحْضه، وإذا اسْتطعْتُ التّخْصيص أكْثر، فإنّ الكتابة عن هذه الفواجع، لا تتطلَّب الآن الكتابة التّخيُّليَّة الإبْداعيَّة بقدْر ما تبحث في الكتابة السّرْديَّة المباشرة التي تُحاول لملمة أشْلاء الحقيقة المتناثرة هُنا وهناك، فيمكن الاسْتناد إلى الحديث عن سرْدٍ واقعيٍّ أدبي في جعْل الفاجعة مرْكزًا لِلْكوْن وفي إعلاءٍ من الشخْصي والذّاتيّ في حكايات النّاجين، بتحْويل قصص النُّقْصان إلى سرديةٍ أدبية.

ليْس عبثًا أن يكُون التّعْبير عن الفقْد والشوق في اللغة الفرنْسيَّة أن يُقال لِلشّخْص الآخر: أنْت تنقُصني، tu me manques. أنْت تنقُصني لأكْتمل أنا بطريقة ما! ليْس عبثًا نُقْصان جسد غيّاث مطر ابْن مدينة داريّا من أعْضائه وسرقتها قبْل إشْهار جُثّته المشوَّهة لِلْعلن، وليْس عبثًا نُقْصان جسد لمى الآغا ابْنة مدينة غزّة من ساقها التي دُفنت جانب جُثّة أخويها!

إنَّ اسْتخْدام مُفردة الفاجعة الملْتبسة في مُحاولةٍ لِتذْويبها وتدْويرها وإعادة سكْبها في مُفْردة الإبادة ضروريٌّ رُبما لإعادة إكْمال النُّقْصان بمعْنى إعادة كتابة أحد وُجُوه الحقيقة، إذ إنّي وبعْد سنة 2011 فقدت شغفي بكتابة وُجهات النّظر، (غالباً) وصرْتُ أتطلّعُ بشغفٍ لِفعْل البحْث عن الحقيقة والانْشغال أكْثر بمحاولة التّعرُّف على وُجوهها ولذلك أجدني مُهْتمَّةً بهذا الشّكْل المخْتلف من السّرْد، رغْم أنَّ سُؤال الحقيقة ما يزال مشْغُولاً بإعادة تركيب ذلك النُّقْصان المتفشّي في حيوات أُولئك الضّحايا الّذين يترُكون لنا - نحْن الأحْياء - فراغًا، لنضيع فيه أو لِننْظر فيه وفي قيمة نُقْصانهم وفي ظُلْم ما يقترفه الجنْس البشريُّ من شُرُور ومن فُنُون في إعادة بناء طُوفانه العظيم، بحيث إن لم تتوقّف خُطُوط الفاجعة هذه عن الامْتداد نحْو إحْداثيّاتٍ جديدة، فلن يكُون هُناك مجالٌ لِلتّفْكير في المسْتقْبل، بأنَّ سفينة نُوحٍ أُخرى سيكُون بمقْدورها أن تمخُر العُباب من جديد.

بالْمعْنى المباشر لِكتابة الفاجعة التي تُواجه سُؤال النُّقْصان نفترض أنَّ سياق ما حصل في سُورية وفلسْطين هُو جُزْءٌ من النّظر إلى حيوات بشرٍ ضمْن اكْتمال فجيعتهم، وهي في طريقها لِلْمحْو، وهُو سُؤالٌ لا يتعلّق فقط بالتّاريخ أو التّوْثيق لِمعْرفة تناوُب أدْوار الضحية والْجلّاد واسْتجْلاب العدالة، هذا سُؤال صعْبٌ آخر، لكنَّه جُزْءٌ ممَّا أُحاول التّفْكير فيه. أتحدّثُ هُنا عن تجْربة الحبْل المشْدود بيْن مدينتيْ غزّة وداريّا كمثال، وفي إعادة إكْمال بناء المدينتيْن عبْر حكاية ناسها، وعبر السُّؤال الأساسيّ لِلْعلاقة مع فكْرة العدالة، وحقّ البشر بالْعيْش الْحرّ الكريم والْمتساوي، هُنا قد أقُول: نُقطة انتهى! ماذا يُمْكن القوْل أكْثر! سؤال كتابة النُّقْصان / الفاجعة هُو سُؤال يبدُو ممجُوجًا الآن، فهؤُلاء البشر ما يزالون تحْت فعْل «الفاجعة» مُصطلحٌ جبانٌ قياسًا بحقيقةٍ مُعلنةٍ تجري علنًا، إذ يجب أن أقُول: إبادة، فعْلٌ نراه بأعْيننا ولا نحْتاج لِلتّأمُّل أو التّفلْسف لِلْبحْث في كلمة الفاجعة أو لِلْبحْث عن مُبررات لِماذا نكْتُب الفاجعة، أو لِماذا نقترب من هذه الجحيم؟ لِماذا تحرُقنا الكلمات عنْدما نُحاول اسْتخْدامها ضدّ الشّر؟ أو كيْف يُمْكن التّفْكير بإعادة إحياء آلام الآخرين في مُحاولةٍ لِمنع تكْرارها؟ أو كيْف يُمْكن التّفْكير بمسْتقْبل الفاجعة حين لا تكْتمل حيوات البشر النّاقصة - فعْلًا وقوْلًا - إلّا بالتّفْكير بالْعدالة لهُم وإعادة رسْم آثارهم؟ نفعلُ ذلك رُبما بإعادة إحياء ذواكرهم ممَّا يجْعلهم عصيّيْن عن التّكدُّس في لُعبة عدّ الأرْقام، وفي مُحاولة انْتشال إنْسانيَّتهم من عمليَّة التشْييء التي تصْنعها ماكينات الإعْلام الاسْتهْلاكيّ السريع، نُحاول ذلك عبْر تحْويل رواية كُلّ ذات منْهم إلى بناء شاهق، كحياة إنْسانيَّة جديدة بأن تكُون بلدًا كاملًا، الذّاكرة الجمْعيَّة هي - باخْتصار - حكايته وحكايتها وحكايتي وحكايتك أنْت. ذاتٌ واحدةٌ هي العالم كُلّه! أو ربما نحْن نكْتُب نُقْصان الآخرين لِنكْتب كمال فكْرتنا عن العدالة، هذا أحد جوانب الحقيقة. نكْتُب نُقْصان أنفسنا وعار العالم الخارجيّ من حوْلنا، نحاول إعادة بناء العالم الزّائل عبْر الكلمات، وفي درْب الجحيم هذا، لا نكُونُ أكْثر من أشْباحٍ تتحرَّكُ في ظلال نُقْصانهم. نُقْصان أُولئك المعذّبين!

طفل مصاب في قصف على مخيم جباليا (الأناضول)

ناجون من قصف على مدرسة بحي الرمال (عمر القطاع/ فرانس برس)

يوقع الاحتلال شهداء يوميا في قطاع غزة (عبد الرحيم الخطيب/ الأناضول)

شهادة

فراس الشيخ رضوان

الذي رأى ما لا يُرى

شابٌ في عشرينيّاته، بهيُّ الطّلعة، بسمرة جذّابةٍ دخل على كرسيٍّ متحرّكٍ. كان عقلي في تلك اللحظةِ يُنتج آراء متناقضةً عن قدرة النّفس البشريّة على التوازن أمام خسارةٍ كهذه تُصيب الجسد في بداية العمر. كنتُ أنتظر ناجياً من حرب مبتورَ القدمين؛ لأجدَ نفسي أمام طفلٍ شيخٍ، هادئُ النّبر والحركاتِ مثل مُعلّمٍ مترَعٍ حِكمةً، يَحكي قِصّتَهُ مَغموراً بالسّكينةِ ناضِحاً بالكَرامةِ، لكنَّكَ ورغم ذلك لا تستطيعُ ألّا تستشِفَّ حَجمَ الألمِ المختبئِ خلف تلكما السّكينةِ والكَرامة.

سيظلُّ يُردّدُ أنَّهُ باتَ نصفَ جسدٍ أو نصفَ إنسانٍ، مثلَما يفعل مُحاسبٌ أمامَ مسألةٍ كَمِّيَّة. وسأظلُّ، معَ كلِّ كلمةٍ من كلماتِهِ التي يقولُها بثَباتٍ وبساطةٍ وإيمان، أزدادُ اقتناعًا أنّي في حضرةِ إنسانٍ مُكتَمِلِ الإنسانيةِ، طفلٍ شيخٍ رأى ما لا يُرى.

أُعرِّفُكِ بنَفسي؟ اسمي فِراس الشّيخ رضوان، عُمري واحدٌ وعشرونَ عاماً، وقبلَ أن أصبحَ نصفَ إنسانٍ كما ترَينَ الآنَ؛ كنتُ أدرُسُ المحاسبة في جامعةِ القُدسِ المفتوحة. أعيشُ في غزَّةَ مع عائلتي: أمٍّ، أخوينِ، أختٍ، وأبٍ دائمِ السَّفر لعملِهِ في التِّجارة. عائلةٌ صغيرةٌ كما ترينَ، لكنّها عائلةٌ سعيدةٌ، أو هذا على الأقل ما أذكرُه. وُلدتُ في الحربِ والحصار، صحيح، لكنّي أحببتُ جامعتي ودراستي، وتعلّمتُ من أهلي العيشَ برضى وإيمانٍ وقناعةٍ بما قسمهُ الله لنا، لذا أؤكِّدُ لكِ أننا كنا عائلةً سعيدة.

نِمتُ يومَ الجمعةِ السّادس من أكتوبر متخيِّلاً أنَّ اليومَ التاليَ مجرَّدُ سبتٍ عاديٍّ، يومٍ دراسيٍّ جديدٍ. صحوتُ على صوتِ صواريخَ قطَعَ النومَ بشكلٍ مُباغتٍ وبدَّدَ مشاهدَ آخرِ حُلمٍ كنتُ أراه. صوتٌ شديدٌ، غزيرٌ، جعلني أقْفِزُ من فراشي وأنزلُ راكضاً إلى الشارع. الناسُ من حولي في حالةِ هِياجٍ. لم يكن أحدٌ منّا يعرفُ ما يَحدث. في أولِ الأمرِ ظننّا أننا نُقْصَف. هذا هو منطقُ الأشياءِ في القَطاع، أنْ نُقْصَف، اعتَدْنا ذلك مثلما اعتَدْنا الحِصارَ والصبر. لكنَّ الأمرَ مُختلفٌ هذه المرةَ: الصواريخُ تَخرجُ من عندِنا! قال بعضُ الجيران: قريباً يبدأُ الإسرائيليونَ جولةَ قَصفٍ من جولاتِهِم المُعتادة، ضربةً، ضربتَينِ، ثلاثاً... قال آخرون: بل هذه معركةُ تحريرِ فلسطين، أكّد آخرون: لن تكونَ حرباً عاديةً، وافقَهم آخرون: هذه المرَّةَ سيقتُلُوننا جميعاً. كلٌّ من حولي قال شيئاً، وكلُّ واحدٍ كان له رأيٌ مختلفٌ. الأكيدُ أننا، في أول الأمرِ على الأقل، لم نعرفْ ما يَحدث، ولم نتخيَّلْ ما سيَحدث. لا أذكرُ بالضبطِ كيفَ مرّت الساعاتُ والأيامُ الأولى. لم تَختصرِ الحربُ طولي إلى النصفِ وحسب، بل أحدثتْ فجواتٍ في رأسي. ما أذكرُه هو أننا قرَّرنا البقاءَ في البيت. لن نُغادِر، القصفُ الإسرائيليُّ آتٍ لا محالةَ، هذا جزءٌ طبيعيٌّ من حياتِنا، هذا منطقُ الأشياءِ في غزَّة. ستكونُ جولةً مُعتادةً من جولاتِ القصفِ، ضربةً، اثنتينِ، ثلاثَ ضرباتٍ، لكنَّنا سنتابعُ عيشَ حياتِنا في أدقِّ تفاصيلِها.

بعد ثلاثةِ أيامٍ، في العاشرِ من أكتوبر، أتى الذي انتظرناه. كُنّا في البيت، أمي في غرفةٍ، أنا في غُرفتي، إخوتي في غرفة، وأبي في سَفَرِه، حين بدأ الهجومُ الإسرائيليُّ. فيمَ سيَختلفُ الأمر؟ فنحن في حِصارٍ منذ سنينَ، يَنقُصنا كلُّ شيءٍ. نحن في حربٍ مُزمنةٍ تأكلُنا على البطيء! أتى القصفُ إذن، وبدا لي أنَّ المُتغيِّرَ الوحيدَ هو أنَّهُ كثيفٌ هذه المرَّةَ إلى أبعد حدٍّ، ولا يَنقطِع، ولا يَتركُ للواحدِ منّا فُرصةَ التّفكير بالنُّزوح. الآن زال كلُّ خلافٍ في الآراء، الآن اتفق الجميعُ أنَّ هذه المرَّةَ لا تُشبهُ أيّاً من المرّاتِ السَّابقة. ثم كان أنْ تعرَّضتْ بنايةُ جيرانِنا لصاروخٍ من العِيارِ الثقيل. تقعُ بنايتُهم وراءَ بنايتِنا مُباشرةً، وكانَ من الطبيعيِّ أنْ ينالَ بيتَنا قسطاً وافراً من الشّظايا والرّدم اللذين تطايَرا من الانفجار. حينها كانت إصابتي الأولى، وكانت في الظُّهر. هذه معلومةٌ قد تكونُ مفيدةً: حين تُصابين، في أولِ الإصابةِ حين تكونُ جديدةً، لا تشعرينَ بوجعٍ. سيأتي في وقتهِ، ليش العَجلة؟ لذا، فورَ إصابتي، لم أشعرْ بالألم، بل لم أشعرْ بشيءٍ وأنا أتأمَّلُ صورةَ ظهري المَشقوق وأتفرَّجُ على لَحمهِ وعظامهِ. كنتُ مثلَ من يُشاهدُ إنساناً آخر، مثلَ الجرّاحِ وهو يُجري إحدى عملياتهِ. شعورٌ غريبٌ، لا أفهمُهُ إلى الآن، لذا لا أعتقِدُ أني مُؤهَّلٌ لوصفِه. حَدَّقتُ في وجوهِ جيراني وهم يَحملُونني إلى المشفى. أخذتُ ساعتها أُراجعُ قرارَنا بالبقاء؛ سُكّانُ بنايتِنا من الأطبَّاءِ والمُهندسين، أبي يعملُ في التجارةِ كما أخبرتُك، كلُّنا مدنيُّون، وليس فينا مُقاتلونَ من حماس أو من فصائلِ المقاومةِ الأخرى. صَدَّقتُ أنَّ الحالةَ لن تَختلِفَ هذه المرَّة، أقصدُ أنّهم سيقصفونَ أبنيةَ المقاومينَ ومواقعَهم ولن يَتعرَّضوا لمدنيينَ مثلَنا. صدَّقتُ ذلك لأنّي اعتدتُ العيشَ على طريقتِهم في القتلِ البطيءِ لنا. ثمّ إلى أينَ كُنّا سنذهب؟ ثم ألمْ تَرَ أنَّ الذينَ خَرجوا من ديارِهم حذرَ الموتِ قُتِّلوا وهم في طُرقاتِ هروبِهم أو في أماكنِ نزوحهم؟ أُحدِّثك عن أفكاري ساعتَها، عن دوافعِ قرارِنا بالبقاء، لستُ نادماً على شيءٍ، الحمد لله على كلِّ حال.

ألقتِ الطائرةُ حمولتَها واختفَتْ، وأسعفني الجيرانُ إلى مشفى الشفاء. كان يعُجُّ بالمصابينَ. وعلى الرغمِ من اسمه إلّا أنَّهُ كان يفتقدُ كثيراً من اللوازمِ والأدواتِ الطبية. لا بدَّ أنَّ أعدادَ الجرحى استنزَفَتْ كثيراً من مواردِه. هناكَ بدأتُ أشعرُ بالألم، وكان جرحي عميقاً طويلاً. رضيتُ بأن يُغْلِقوه بخيوطٍ جراحيّةٍ قديمة. لم يكن لديَّ خيارٌ آخر، وكنتُ أريدُ أن أنتهيَ من القصةِ بأسرعِ وقتٍ وأعودَ للاطمئنانِ على أهلي. قال الأطباءُ إنّني يجبُ أن أبقى، لكنَّ فكري مشغولٌ على أهلي ولن أنامَ على الأرضِ وسطَ أكداسِ المصابين. خرجتُ، لا أعرفُ كيفَ فعلتُها، لا أذكرُ، أذكرُ أني كنتُ أمشي مُترنِّحاً ولا أكادُ أبصرُ أمامي. مررتُ على صيدليةٍ لشراءِ اليودِ المعقّمِ والشاش، وحينَ وصلتُ إلى البيتِ أخيراً وجدتُ أنَّ أهلي جميعاً بخيرٍ والحمدُ لله، وأنَّ الإسرائيليينَ أصدروا بياناً بعدَ القصفِ طالبينَ منّا الذهابَ إلى الجنوب، إلى رفح.

الحزام النّاريّ

خرجنا، أنا وأمي وإخوتي، نازحينَ إلى دار أصدقاءَ للعائلة في شارع الجّلاء وسط مدينةِ غزة. وهُناك، في الخامس والعشرين من أكتوبر، تعرضنا لقصفٍ جديدٍ وأُصِبت للمرّة الثانية. أرجو، حينَ أقولُ «قصفٍ جديدٍ»، ألّا تفهمي أنّ الصفة هُنا تفيدُ مجرّد التّكرار العدديّ. لا! لقد كان شيئاً مختلفاً، يُسمّونه «الحزام النّاريّ». سمعتِ بالحزام النّاريّ من قبل؟ ليس صاروخاً أو اثنين، عشراتُ الصواريخ والقنابل. ههُنا قصفٌ عنيفٌ متواصلٌ قد يدوم ساعةً كاملةً، سوى أنّ هذه السّاعة لا تنتهي. قصفٌ شرسٌ، لا يرضى بأقلَّ من مسح أحياءٍ بكاملها ومحوِ عائلاتٍ كاملةٍ من السّجل المدنيّ. كنت في الشّارع حين بدأ الحزام. لا يُمكن تصديق ذلك، لا يُمكن وصف ذلك. كنت في الشارع حين دوّى الصّوت وزُلزلت الأرضُ وانهارت الأبنية. صعدتُ فوراً للاطمئنان على الأهل والنّزول بهم. شيءٌ لا يُوصف. قصفٌ خرافيٌّ لا يتوقف، والأبنية تنهار مثل قلاعٍ من البسكوت. كلّ شيءٍ يهتزّ: الأبنية، الأرض، القلوب، الهواء، النّاس. نركض، أركض، النّاس من حولي يركضون، وفي ركضنا نرى الرّكام والقتلى والأشلاء البشرية المتناثرة في كلّ مكان. لم نعد نرى أجساداً، أو كتلاً مكوّمةً، بل أعضاء وأحشاء وأطرافاً. رأيتُ بعض الأحياء أيضاً، نعم، رأيتُ من أُصيبوا ولا يزال بهم رمقٌ من حياة. لا أزال أذكر وجوههم، أطفالٌ، نساءٌ، رُموا هنا وهناك. رأيت رؤوساً وأيادي وأرجلاً، رأيت أنصاف أجسادٍ وأرباعها، رأيت أجساداً مفتوحةً مثلَ أطلس التشريح، وكنّا نقفز فوقها، ندوسُ عليها أحياناً، نتعثر بها أحياناً، ندوس على بعضنا بعضاً، نركض ونتدافع لا نفكر بشيءٍ غير الهروب من الجحيم التي اسمها الحزام النّاريّ. شيءٌ بشعٌ. قُتل مئتان من النّاس دفعةً واحدةً، ارتفع بعدها الرقم إلى ثلاثمئة. مئتان على الأقل إذن ذهبوا هكذا [أشار بكفه كما لو كانت تلفظ فقاعةً من هواء]. سمّوا ذلك اليوم خبطة الجلاء، ضربةَ أو مجزرة الجلاء. نجت عائلتي مبدئيّاً من أولى موجات الحزام النّاريّ، ونوينا التوجّه إلى جنوبِ القطاع.

كما لو كنت ميّتاً

ركبتْ أمّي مع أخي وأختي في سيّارةٍ، وركبتُ مع أخي الثّاني في سيّارةٍ خلفهم. وفي الطّريق إلى رفح تعرّض موكبنا للقصف. وبعينيّ رأيت سيّارة أمّي تُقصف. الفتاة الّتي كانت بجانبها ماتتْ على الفور، أمّا أمّي فأُصيبت إصابةً خطرةً في رجلها. هذا كلّه من الشّظايا. لو أنّ الصّاروخ نزل على السيّارة مباشرةً لكانت تبخرت في الحال. الحمد لله. نزل الصّاروخ قريباً من السيّارة وأصابتها شظاياه. الصّواريخ تنشر روائح غريبةً إلى أبعد حدّ، كريهةً وقاتلةً، تُعيق التّنفس الطبيعيّ، لا بدّ أنّها سُمومٌ زُوّدت بها. يُريدون قتلنا بكلّ الوسائل المُمكنة. لكنّ الرعب الحقيقيّ كان في الصّوت، صوت الانفجارات التي يحدثها الحزام النّاريّ، كأنّ الأرض تنشقّ نصفين وتصرخ من ألمها. لا يزال طنين الانفجارات في أذني، الحمد لله. ما حدث مع سيارة أمّي حدث معنا بعد ذلك بزمنٍ وجيزٍ، صاروخٌ نزل قريباً للغاية من سيارتنا. طرت بعيداً، طارت السّيّارة، طار فيها أخي والسّائق وأولاده. لم أكد أستوعب ما يحدث حتّى نزل صاروخٌ آخر. اختفى كلّ شيءٍ. أنظر حولي ولا أرى شيئاً. أشعر بدوارٍ وثقلٍ في الرأس ولا أرى شيئاً. بعد قليلٍ لمحت يدًا أعرفها. كانت لواحدٍ من أولاد السائق. لم أرَ جسده، رأيت يده أوّلاً، ثمّ رأيت أشلاءً له قريباً من يده، وعلى بعد بضعة أمتارٍ رأيت رأسه يقعد على بطنه، ويده الأخرى مُركّبةٌ عليهما، وبجانب ذلك أشلاءٌ وأحشاءٌ له، أو ربّما لأحدٍ غيره، من يدري؟ كان مثل لوحةٍ مشوّهةٍ أو لعبةٍ ركّب ولدٌ أجزاءها بطريقةٍ عشوائيّةٍ. نظرت إليه وضحكت، إي والله ضحكت! لم أستطع إلّا أن أنظر إليه وأضحك. لم أكن أبتسم، ضحكت وكنت أسمع ضحكتي، وأنظر حولي وأضحك. لم أرَ مخلوقاتٍ حيّةً حولي، رأيت ركاماً وغباراً وأشلاءً بشريّةً. ورأيت أنّي فقدت ساقي. قبل الخامس والعشرين من أكتوبر كنت بساقٍ واحدةٍ وأستعين بعكازٍ تعينني في المشي، الآنَ فقدت الثّانية. لم أشعر بأيّ ألم، أخبرتك أنّك لا تشعرين بألم الإصابة الطّازجة. والقصف لم يتوقف، لا يأتي الحزام الناريّ ليذهب عند أوّل فرصة. ظلّت الصواريخ تنزل، ومع كلّ نزلةٍ كنت أعلو وأطير، وفي طيراناتي المتعددة رأيتُ جثّة السّائق، ورأيت جثث أولاده الثّلاثة، كانت تتمزّق مع كلّ ضربةٍ، تتنتّف. يصعبُ وصف ما تبقى منها بأنّه أشلاءٌ، لم تُبقِ الصواريخ غير نُتَف. نتّفونا تنتيفاً. أطير مع الضّربات، وأسقط لأطير مجدّداً، وأنظرُ إليّ كيف فقدت رجليّ وأبتسم. لمَ كنت أبتسم؟ ماذا كان عليّ أن أفعل إذن! جلست بهدوءٍ، لا أشعر بأيّ شيءٍ. لعلّها راحة الموت. رجل ذو ملابس بيضاء وملامح طيبة أخذ يدنو مني ويتلو بصوتٍ نديٍّ: ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. ثمّ اقترب مني وخيّرني بهمسٍ بين الشّهادة والحياة. قلت له من فوري: أنا نِفسي في الشّهادة من زمان. هناك، في الآخرة، تعيشين في هدوءٍ، سكينةٍ، مع النبيّين والصِدّيقين والشهداء والصالحين، ولا يزال الرّجلُ ذو الملابس البيضاء والملامح الطيّبة يخيّرني بين الشّهادة والحياة، فأجيبه: أنا نِفسي في الشّهادة من زمان، ثمّ يعود ليخيّرني من جديدٍ كأنّه لا يسمعني. بعدها، وكنت أقتعد الأرض بمؤخرتي وما تبقى من طرفيَّ السفليين، أزاح من حولي بعض الرّكام، وأمسكني برفقٍ، وجعلني أستلقي على ظهري، ومسح على رأسي وهو يتمتم بكلماتٍ لم أفهمها. أكّدتُ له أنّي أُريد الشهادة، ثمّ أطبقتُ جفنيَّ على هذه الحال، وكان وجهه آخر ما رأيت.

> لن نُغادر، القصف الإسرائيلي آتٍ لا محالة، هذا جزء طبيعي من حياتنا، هذا منطق الأشياء في غزّة

> قضيت ساعات في كيس بلاستيكي في ثلاجة بصحبة الجثث. كيف حدث هذا؟ لم نعثر على نبضك، قال لي طبيب

> أمي مصابة بجراح خطرة، أخي الصغير ذو السنوات الثلاث جسمه مزروع بالشظايا، ومثله أختي وأخي الآخر

العائد من الحياة

وصلْتُ إلى المشفى ميّتاً. لا أدري من الذي تكبّد عناء نقل جثّتي إليه. لم أكن وحسب بلا رجلين، كان جسدي مُفتّحاً بجروحٍ كثيرةٍ، النّصف الذي تبقى منه أعني، وبه شظايا لا تُحصى، وخسر كميّةً لا بأس بها من لحمه وتماسُكه. كان أقربَ ما يكون إلى الأشلاء التي رأيتها قبل موتي. عبثاً بحث الأطبّاء عن نبضي وخفقات قلبي. ميّتٌ، وضعوني في الثّلاجة. يسهل وضع نصف جسدٍ في كيس نايلون وإلقاؤه في ثلّاجة الموتى. صلّى عليّ أصحابي وعمّي صلاة الجنازة، وبكوا كثيراً وهم يتحلّقون حول جثّتي. ولمّا أمسك عمّي بيدي يُودّعني صرخ وهو يَبكي: عايش، عايش! طلب الأطبّاء من عمي أن يهدأ ويستغفر ربّه. أستغفرُ الله العظيم، لكنّه حيّ، والله إنّه عايش! صدّقهُ أخيراً أحدهم وعثر عندي على علامات حياةٍ. حيٌّ، لكنّه يُحتضر، ويحتاج ستّ وحداتِ دمٍّ، ربّما نستطيع إنقاذه. أسرع عمّي لإحضار وحدات الدمّ، بينما كان الأطبّاء ينقلونني من المشرحة إلى غرفة العمليّات. قضيت ساعاتٍ ربّما في كيسٍ بلاستيكيٍّ في ثلّاجةٍ بصحبة الجثث. كيف حدث هذا؟ لم نعثر على نبضك، قال لي طبيب، وكانت عيناك مفتوحتين كعيون الموتى. وفي غرفة العمليّات قضيت سبع ساعاتٍ إلى تسع. من المؤسف أنّني لا أذكر شيئاً من ذلك، أخبروني بالتفاصيل لاحقاً، أي بعد أن صحوت من عمليتي. كان ذلك أيضاً في مشفى الشفاء، في السادس والعشرين من أكتوبر، اليوم التّالي لقصف سيّاراتنا. وشيئاً فشيئاً بدأت أستعيد ما حدث في اليوم السّابق. تذكّرت الرّجل الأبيض، تذكّرت أني استُشهدت مُغمضاً عينيّ على ملامحه الطيّبة.

ارتجفتُ من موجة بردٍ تسلّلتْ إلى عظامي. ثمّ تذكّرت أنّي فقدت ساقي، بعينيّ رأيت اختفاءها. غريبٌ! لا أزال أشعر بوجودها. لم أكن أستطيع تحريك رأسي أو رفعه لرؤية الأمر بنفسي، لكنّ الأطبّاء وعمّي أكّدوا لي أنّها لا تزال موجودةً. ما الذي كان ما رأيته إذن؟ الأشلاء، اختفاء رجلي، مَلَك الموت، كلّ ذلك كان هلوسةً؟ لم أستشهد! لا يمكن أن يكون كلّ ما سبق مجرّد كابوس. أشعر برجلي موجودة، صح، لكني متأكّد بأنّها طارت. عمّي يقول إنّها موجودة، الأطبّاء يقولون إنّها موجودة، وأنا أشعر بها. قد تكون موجودة إذن، قد يكون ما سبق كابوساً حقّاً. ابن عمّي أكّد لي أنّي مشيت عليها، لا بدّ أنّها موجودة إذن. ونصف الجسد الذي بقي لي خضع لعمليّاتٍ كثيرةٍ، بات محفوراً بالشقوق وموشوماً بالقطب، والأطبّاء يأتون إليّ دائماً ويفحصون قدمي. لا بدّ أنها موجودة إذن. لكنّ شعوراً غريباً يراودني، أشعر أنّ الجميع يكذب عليّ. قلت لعمّي: عمّي، احكِ لي الحقيقة، ما وضع رجلي؟

- راحت يا عمّي.

- أيّ واحدة تقصد؟

- التِنتين عمّي، التِنتين.

قلت له: الحمد لله، شعرت بارتياحٍ شديدٍ. مستغرِبة!؟ سبقتني رجلاي إلى الجّنة، ركضتا مسرعتين مثلما كنت أركض وأنا ولدٌ وراء الطّابة. تأكدّت حينها من قصّة الملاك، كلّ ما حلّ بي كان حقيقيّاً. متُّ، ثمّ عدت إلى الحياة، واستبقى الموت جزءاً منّي لديه ريثما ألتحق به. تذكّرت كلّ الذي رويته لك من قبل، كل شيء. بل ليس كل شيء، بعضاً مما رويته لك. شعرت بالرّضى لأنّ الله اختار لي ما اختاره. شعرت برضى حقيقيّ. وكان أن انتشر شريط فيديو يعرض حالتي، وتلقيت في إثره تعاطفاً كبيراً من ناسٍ مكتملي الأعضاء، من ناسٍ فقدوا ذراعاً أو ساقاً، من ناسٍ فقدوا أكثر أو أقلّ، وكنت ممتناً لهم، وزادتني كلماتهم صبراً وقوّةً ورِضى.

فيمَ تفيد ساقٌ واحدة؟

لكنّ ذلك لم يكن نهاية قصّتي في مشفى الشفاء. حالتي لا تزال خطِرةً، وكان عليّ المكوث فيه خمسة أشهر. لا يزال ما تبقى من طرفيَّ السفليّين يأتكلان، وكان على الأطبّاء إجراء عمليّة في كلّ مرةٍ، أي التّنظيف بإزالة مزيدٍ من اللحم والعظم. نعم! كانوا يبترون في كلّ مرّةٍ حتّى لم يبقَ لديّ ما يبترونه، وصلوا إلى أعلى الفخذين. كان الوضع صعباً. كلّ عائلتي في المشفى. أبي لا يزال في سفره، أمّي مصابةٌ بجراح خطرة، أخي الصّغير ذو السّنوات الثّلاث جسمُه مزروعٌ بالشّظايا، ومثله أختي وأخي الآخر. والأطبّاء لا يكفّون عن البتر، لا يريدون أن يتركوني أموت بسلام. قلت لهم: أُفضّل الموت على رُؤيتكم كلّ مرة تقتطعون جزءاً إضافيّاً من جسدي. أعددت نفسي للموت، الجميع ظنّ أنّي ميّتٌ قريباً لا محالة، فحالتي خطرةٌ. حصلت أشياء كثيرةٌ، وتوقّف الائتكال، وتوقّف البتر إذن عند أعلى فخذيَّ، وعشت. لا أستوعب ما حصل. أتذكر لحظات ما قبل الحزام النّاريّ، كنّا في الشارع، كنت في الشارع أرى النّاس يمشون بشكلٍ عاديّ، اشتريت بعض الأغراض، رأيت جارنا يشتري الخبز الذي لم يأكله أحد. لم نكن غير مجموعةٍ من المدنيّين، مُجرّد عائلاتٍ عاديّة تعيش حياةً عاديّة إلى أن حدث ما حدث. شيءٌ فظيع، لن تتخيلي بشاعة المشهد مهما وصفت لك، كانت الجثث والأشلاء في كلّ شبرٍ. في طرفة عينٍ مُسح كلّ شيء، اختفت بيوتٌ ومحالٌ ومخازن وحيواتٌ كاملة، دمّروا كلّ شيء في غزّة، دمّروا غزّة كلّها. أُريد أن أفهم: ما ذنبي؟ ما ذنب الأولاد الذين كانوا معي في السّيارة؟ ما ذنب حيّ التاج؟ نسيت أُخبرك، المنطقة التي كنّا فيها في شارع الجّلاء اسمها حيُّ التّاج، لم تعد موجودةً، كلّ سكّانها أطباءٌ ومهندسون وأكاديميون وتجار، أُريد أن أفهم لأنّي لا أشعر بشيء، وأتخيّل أنّ الفهم يمكن أن يحقق معرفةً تُغني عن فقدان الشعور. تُصدّقين؟ كنت أسمعهم وأنا في المشفى يهمسون بأنّي سأموت، كانوا يبترون ويُخرجون الشظايا ويهمسون بأنّني ميّت. أتظاهر بأنّي لا أسمعهم، لكنّني كنت أتمنّى أن يكون ما يقولونه حقيقيّاً. لم أكن أُريد أن أعيش، أن أتعافى، أردت أن أموت وحسب، فالآلام كانت رهيبةً، لا تستجيب للمسكّنات، وما تبقى من جسدي كان أبعد ما يكون عن أن يُشبه جسد إنسانٍ سويٍّ. أيُّ عيشةٍ هذه؟ ما الوجع؟ ما الجسد؟ ما الإنسان؟ لكن اسمعي، بالرغم من كلّ شيء، أو ربّما بسببه، أُريد أن أعيش، أن أبدأ حياتي من جديد، ما تبقى منها. عدت من الموت وسأعيّش ما تبقى لي ريثما ألحق برجليّ. سأعمل بالتّجارة، سأشتري بيتاً وسيّارةً، سأعيش مثل البشر. طوال الوقت أفكر بعائلتي، بأخي الصّغير تحديداً. يعيش الآن وحده في رفح. يعيش في خيمةٍ، ولدٌ صغيرٌ يعيش في خيمة بعيداً عن أهله، وقد علمت مؤخراً أنّه أُصيب بالتهاب الكبد. التفكير فيه يقتلني. دمّرت إسرائيل حياتنا، هدمت بيوتنا، حوّلت أجسادنا إلى أشلاء، مزّقت عائلاتنا، لا أستطيع التفكير بكلّ هذا مرّةً واحدةً، لو فعلت سأنفجر حينها بالتأكيد. ثمّ يحدث أن أرى الناس يمشون بينما أتدحرج على كرسيٍّ متحركٍ، فلا أملك إلّا أن أسأل نفسي: لمَ ذهبت الرجلان كلتاهما؟ لمَ لم تبق واحدةٌ على الأقل أتعكّز عليها؟

سمر...